29- البيذق، المصدر السابق، ، ص68

30- ابن القطان، المصدر السابق، ص160

31- ابن القطان، المصدر السابق، ص161

32 -عبد الله علي علام،الدولة الموحدية بالمغرب،دار المعارف،القاهرة 1968.ص97

33 -المراكشي، المصدر السابق، ص287

34-مجهول، الحلل الموشية، ص143

35 -ابن أبي زرع ، المصدر السابق، ص184

محمد بن مصطفى بن الخوجة: حياته وأفكاره (1865-1915)

أ. إبراهيم لونيسي*

لقد ظهرت في الجزائر مع أواخر القرن التاسع عشر العديد من الشخصيات الفكرية والأدبية، لعبت أدوارا هامة في إثراء الحياة الثقافية الجزائرية بكتاباتها الكثيرة والمتنوعة، وبذلك تكون قد ساهمت بفعالية في صنع النهضة الجزائرية الحديثة والمعاصرة. ومن أبرز هذه الشخصيات محمد بن مصطفى بن الخوجة. فمن هو هذا الشخص ؟ وما هو الدور الذي لعبه في إثراء الحياة الفكرية و الثقافية الجزائرية؟

من هو محمد بن مصطفى بن الخوجة؟

ولد في مدينة الجزائر سنة 1865، أي في السنة التي قام بها الإمبراطور نابليون الثالث بزيارته الثانية إلى الجزائر، وتلقى ابن الخوجة تعليمه في مدينة الجزائر، وهو تعليم ديني ودنيوي، وهو ما سيتضح لنا جليا من خلال تناولنا لبعض كتاباته بالدراسة والتحليل.

وابن الخوجة لم يغادر القطر الجزائري إطلاقا، كما أنه تقلد مناصب عديدة منها توليه عضوية

*أستاذ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية- قسم التاريخ بجامعة جيلالي اليابس- سيدي بلعباس.

تحرير جريدة المبشر التي كانت قد أصدرتها الحكومة العامة الفرنسية بالجزائر سنة 1847 باللغتين العربية والفرنسية، ولقد تولى هذا المنصب مع النصف الثاني من ثمانينيات القرن التاسع عشر حيث ظهر اسمه لأول مرة على صفحات هذه الجريدة في ذيل الحلقة الأخيرة من الدراسة القيمة والمطولة جدا، والتي هي بعنوان: "الغنم في المواطن الجزائرية"، وذلك بتاريخ 15 جانفي 1887، ولقد بقي كمحرر في هذه الجريدة إلى غاية 1901.

وساهم ابن الخوجة في تأسيس جريدة "المغرب" الناطقة باللغة العربية، والتي قال عنها الشيخ الإمام محمد عبده عندما قدّم له نسخة من هذه الجريدة أثناء زيارته للجزائر سنة 1903 رغم الأخطاء الكثيرة الموجودة فيها أنها مفيدة للجزائريين الذين جردوا من الصحف العربية الوطنية، والتي يقول عنها أيضا أستاذنا أبو القاسم سعد الله بأنها من الجرائد التي أثرت على الرأي العام الجزائري خلال هذا العهد 1900-1914، وخاصة وأنها ذات اتجاه إصلاحي إسلامي. وكانت تنشر أفكار محمد عبده الإصلاحية وآراءه عن الشؤون الإسلامية[1].

ولكن محمد بن مصطفى لم يكتف فقط بمهنة الصحافة، إذ أنه في الوقت الذي كان يمارس فيه مهنة الكتابة كان يدرس في جامع السفير الذي عين فيه سنة 1895[2]، كما عين سنة 1913 وكيلا على ضريح عبد الرحمن الثعالبي[3]، وتولى أيضا وظيفة تصحيح المطبوعات العربية لإدارة الولاية العامة بالجزائر، مع العلم أنه كان لا يعرف اللغة الفرنسية وهذا على حسب الزعيم المصري محمد فريد بك المحامي الذي تعرف عليه شخصيا عندما جاء الجزائر زائرا سنة 1901، حيث يقول فيه: "وممن تعرفت بهم من أفاضل القوم محمد بن مصطفى بن الخوجة المحرر بإدارة الجريدة الرسمية المسماة "المبشر"، هو شاب لا يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره بالعلوم العربية لدرجة لا يجاريه فيها غيره من علماء الجزائر، ولذلك كلف بالتدريس في الجامع الكبير وله اطلاع على العلوم العصرية إلا أنه لم يتعلم الفرنساوية مع مدرس للفرنساويين في كل وقت وآن"[4].

كان عالمنا على صلة كبيرة بالفكر الإصلاحي الذي كان سائدا في المشرق العربي، والأمر الذي ساعده على ذلك هو اشتغاله في ميدان الصحافة لمدة طويلة من الزمن حيث كان يطلع على العديد من الجرائد والمجلات المشرقية مثل المؤيد ومصباح الشرق والمنار. ومما لا شك فيه أنه من خلال هذه الأخيرة اطلع على فكر الشيخ الإمام محمد عبده الإصلاحي، وتأثر به إلى حد بعيد حتى أنه نصب نفسه داعيا لهذا الفكر في الجزائر، وهو ما جعل محمد عبده يقول عندما زار الجزائر سنة 1903 بأنه: "وجد له حزبا دينيا ينتمي إليه من حيث لم يكن يعلم، وإنما الصلة بينهم وبينه مجلة المنار"[5].

وعلى ذكر زيارة الإمام محمد عبده للجزائر أود الإشارة إلى أنه مكث فيها مدة عشرة أيام وكانت له فيها نشاطات عديدة، ومن بينها قيامه بتفسير سورة العصر في أحد مساجد العاصمة وهذا بطلب من علماء الجزائر ومن بينهم محمد بن مصطفى بن الخوجة وعندما عاد الشيخ الإمام إلى مصر قامت مجلة المنار بنشر تفسير الإمام في العدد الصادر بتاريخ الخميس غرة شعبان 1321 هـ الموافق لـ 22 أكتوبر 1903، و بعد أن اطلع الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة على هذا التفسير كتب للإمام رسالة نشرت في المنار الصادر في 01 ذي الحجة 1321 الموافق لـ 18 فبراير 1904 يقول له فيها: " وقد اطلعت في المنار الأنوار على تفسير سورة العصر بقلمكم البديع فراقني أسلوبه الفائق العجيب، وأخذ مني مترعه العصيب بالتلاليب فلله أنتم و لله دركم ما أبعد غور فكركم الصائب و غرض ذهنكم الثاقب في استنباط دقائق المسائل و تقرير حقائق الفضائل و لشدة شغفي به قرأته على ملأ عظيم من العلماء و الطلبة و الأعيان عشر مرات في مجالس متفرقة فاستحسنوه جدا واستجزلوا فوائده و أبدوا من السرور مالا مزيد عليه و أثنوا على جنابكم السامي بما أنتم أهله و دعوا لكم من صميم الفؤاد بسعادة الدارين".

وبفعل تأثره الشديد بالشيخ الإمام محمد عبده وبفكره الإصلاحي فإنه قام بتنظيم قصيدة رثائية فيه عندما تناءى إلى مسامعه خبر وفاته وهي تتكون من خمسة وأربعين بيتا ولقد نشرها صاحب مجلة المنار رشيد رضا كاملة في كتابه "تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده" (الجزء الثالث).

إنه يبدأ القصيدة بوصف عظمة هذا الحدث و جسامته و مدى الحزن و الأسى الذي عم جميع أرجاء العالم الإسلامي وأن محمد عبده لم تبكه مصر فقط بل كل أرجاء الدنيا.

مصـــاب جسيم عم كل العشائر — و أسلمنا قهرا لحكم الـمقادر
رمينا بخـــطب لا يقـاس بغيره — فجـعنا بـرزء ماله من مناظر
وأكبـادنا ذابت أسى وكـآبـة — وأعيننا مـثل العـيون الهوامر
على موت مفتي المسلمين وفخرهم — ومن كان للإسلام نو البصائر
بكت مصر والدنيا جميـعا لفقده — وأبناؤها من كل باد وحاضر.

وبعدها تحدث عن مميزات أدبه التي ما طلع عليها إنسان إلا وأصبح علمه غزيرا كما بين لنا في بيانه الساحر

تأليفـه تنسيك ما حيك قبلـها — وتغنيك عن جل الطروس الكبائر
أفادت مـن الـتحقيق كل يتيمة — تقـاصر عنها كابـر إثر كابـر
وحلت بتدقيق عويصا و مشكلا — بحيث غدا كالـبدر يبدو لناظـر
عليك بها أن رمـت تجني هداية — وتصبح أستـاذ العلـوم الغزائر

ثم بدأ الشاعر في التحسر على الفقيد الراحل و إطلاق آهاته عليه وكم هي حارة ومليئة وحزينة.

فواها على شمس المعارف و التقـى — و واها على التذكير فوق المنابـر
وواها على التدريس في كل مذهب — وواهـا على الأقلام بعد المحابـر
وواها على التوحيد الفقه و الـلغى — وواها على التفسير أصل العناصر

وبعد كل هذا ينتقل الشاعر إلى الحديث عن أعمال الإمام الراحل وكم هي كثيرة ومفيدة في آن واحد، وفي أخر القصيدة يترحم الشاعر على الشيخ الإمام طالبا له الغفران والرحمة من عند الله سبحانه وتعالى:

فيارب قابلـــه بعفو و رحمـــة — وعامله بالغفران يا خير غافر
وأحسن إليه وأرض عنه و أرضه — بكل نعيم لم يجل في الخواطر

أفكـــاره: يعد بن الخوجة داعية إصلاح و تقدم اجتماعي كما كان يدعو إلى نبذ البدع و الخرافات وتحرير العقل كما أن أفكاره التي كان ينشرها حول الإسلام و المسلمين و اللغة العربية تمتاز بكونها أفكارا متسامحة و واعية.

ومن أبرز تأليفة التي حاول من خلالها بث هذه الأفكار الكتاب الذي يحمل عنوان "الاكثرات في حقوق الإناث" والذي طبعته مطبعة فونتانة بالجزائر العاصمة 1895 والذي راجعته الصحف الفرنسية واستحسنته على أنه صادر من رجل مسلم متفتح وملتزم في نفس الوقت بالدين الإسلامي. وقد تحدث فيه عن وضع المرأة في العائلة وحقوقها وواجباتها ولم يقف أو يستنكر تعدد الزوجات واستند في ذلك إلى القرآن و السنة وأثبت المؤلف حسب المراجعين للكتاب عدم تعصبه الديني ودعا إلى التعلم[6].

وبشكل عام فإن مصطفى بن الخوجة من هذا الكتاب يدافع عن مكانة المرأة الحقيقية في الإسلام بالاعتماد على القرآن والسنة وبهذا يمكن القول أن هذا العالم المصلح يعد أول جزائري يناقش قضية المرأة في العصر الحديث في القطر الجزائري، ومن الرواد الأوائل في العالم الإسلامي.

إن محمد بن مصطفى في معالجته لهذه القضية انطلق من الواقع الذي كانت تعيشه المرأة الجزائرية في تلك الفترة العصيبة، و المطالع لهذا الكتاب يلاحظ أن ابن الخوجة مس علة تأخر المرأة المسلمة في ذلك الوقت و تقدم المرأة الأوروبية و هذه العلة هي التعليم. و السبب في ذلك هي التقاليد البالية التي كان معظم المجتمع الإسلامي يتمسك بها في تلك الفترة، فيقول واصفا المرأة المسلمة و المرأة الأوروبية: "يتطاولن على رجالهن و يكلفهم ما لا يطاق من الإنفاق ومنهن من لا تحيي زوجها ولا ترحب به ولا تبش في وجهه بل تعرض عنه ولا تجيب نداءه ولا تمتثل أمره، وفيهن من تشتمه وتدعو عليه مشافهة حتى اضطر بعضهم إلى تأديبها بالضرب زيادة على بذل جهده في اللعن والسب أما نساء الإفرنج فلا ينهجن مع بعولتهن ذلك النهج"[7].

ويرى أن العلم هو السبيل نحو الخروج بالمرأة المسلمة من هذه الحالة المتردية ويجعل كلمة "علم الدين" مرادفة للتمدن، خاصة وأن التعليم فريضة على كل مسلم ومسلمة. ولكن رغم ذلك فإن النساء المسلمات "بقيت كأنهن لسن بمكلفات حتى صرن لا يفرقن بين الحلال والحرام وأن هن إلا كالبهائم السارحة والنعام، وما ذاك إلا لجهلهن بالكتابة التي هي مفتاح العلوم لكل قاصد. ومتقدمة عليها تقدم الوسائل على المقاصد و من المعلوم أن كل أمر لا يتم الواجب إلا به فهو واجب" ويرد على أولئك الذين يتحججون في قضية تعليم المرأة بإحدى الأحاديث النبوية التي تقول: "لا تنزلوهن في الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن سورة النور والغزل" إنه حديث غير صحيح وقد أشار المحققون إلى ذلك: "وكيف يصح وقد كان

في عهده صلى الله عليه وسلم معلمات للكتابة يعلمن النساء؟ وعلى تقدير صحته– أي الحديث السابق الذكر – فالضرورات تبيح المحضورات ولا ينكر تغير الأحكام بتغير الأيام، فقد تقرر في الأصول أنه إذا تعارضت مفسدتان دوعي أعظمها ضررا بارتكاب أخفها.. ويؤدي لو اعلم ما لمرخص للمتمسكين بالحديث السالف في أن يعلموا ببعضه و يهملوا بقيته حيث أنزلوا النساء في الغرف ولم يعلموهن سورة النور...وهل هذا إلا تحكم نشأ عن غرض نفساني، ووسواس شيطاني ويا ليتهم إذا منعوهن من تعلم الكتابة أدبوهن وفقهوهن امتثالا لقوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا"، أي احفظوا ذاتكم ونساءكم وأولادكم وأقاربكم من النار بالنصح والتأديب والتعليم... أي علموهن مكارم الأخلاق"[8].

وابن الخوجة يحمل الرجل مسؤولية تأخر المرأة المسلمة: "ولكن لولا جهل الرجال وغباوتهم لما وصلت النساء إلى هذه الدرجة من الجهل والزيغ والضلال"[9] لأنه هو الذي رفض تعليم المرأة بعدة دعاوي مثل أن المرأة لو تعلمت القراءة ولكتابة فإنها لن تطالع إلا الكتب الفاسدة وستقوم بكتابة الرسائل إلى عاشقها، ويرد صاحبنا على هذه الدعاوي بقوله: " فإما إن كانت فاسدة من طبعها فلا يصعب عليها اتخاذ عجوز بدل الرسائل، فإن بعض العجائز الجاهلات هذه حرفتهن"[10].

كما أن مصطفى بن الخوجة طرح جملة أخرى من أفكاره في مقدمة و خاتمة كتابه الموسوم "مجموع مشتمل على قوانين مفيدة و تنظيمات سديدة" المطبوع سنة 1902 في مطبعة فونتانة، وهو عمل قام بإعداده وترتيبه تحت إشراف الحكومة العامة في الجزائر بمناسبة زيارة وفد مغربي رسمي إلى الجزائر سنة 1901 بدعوة من الإدارة الإستعمارية وكانت هذه الزيارة في عهد الوالي العام ريفوال. والقارئ لمقدمة الكتاب وخاتمته يلاحظ مدى إعجابه بأفكار كل من خير الدين باشا ورافع رفاعة الطهطاوي.

يشير في مقدمة الكتابة إلى أن الشريعة الإسلامية هي التي كانت السبب الرئيسي في تقدم الأمة الإسلامية عندما تمسك بها المسلمون الأوائل "...حتى تحسن أحوالهم ويحوزون قصب السبق في مضمار التقدم فإن ذلك متوقف على الاجتماع وانتظام طائفة من الأمة ملتفة من حملة الشريعة ورجال عارفين بالسياسات ومصالح الأمة متبصرين في الأحوال الداخلية والخارجية ومناشئ الضرر والنفع بتعاون مجموع هؤلاء على نفع الأمة بجلب مصالحها ودرء مفاسدها بحيث يكون الجميع كالشخص الواحد كما قال عليه الصلاة والسلام "المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا" وكما قال صلى الله عليه وسلم: "المؤمن كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد"[11].

من خلال هذه الفقرة نلاحظ مدى خطورة هذا الكلام ومدى مفعوله في أوساط الجماهير الشعبية التي يعمل على تحريكها للعمل كرجل واحد وخاصة في تلك الفترة التي كان فيها الاستعمار الفرنسي يحاول بكل وسائله تفريق كلمة الشعب الجزائري.

وإذا كان التمسك بالشريعة سببا هاما في تقدم الأمة الإسلامية فإن بعض المغفلين الجاهلين تسببوا في تأخر هذه الأمة لاعتقاداتهم الفاسدة والبالية "...وبالجملة فما آخر المسلمين وطرهم إلا المغفلون منهم بتماديهم في الإعراض عما يحمد من سيرة الغير الموافقة لشرعنا بمجرد ما انتشف في عقولهم من أن جميع ما عليه غير المسلم من السير والتراتيب ينبغي أن يهجر وتآليفهم في ذلك يجب أن تنبذوه ولا تذكر حتى أنهم يشددون الإنكار على من يستحسن شيئا منها وهذا على إطلاقه خطأ محصن فإن الأمر إذا كان صادرا من غيرنا وكان صوابا موافقا للأدلة لا سيما إذا كنا عليه وأخذ من أيدينا فلا وجه لإنكاره ولإهماله بل الواجب الحرص علىِ استرجاعه و استعماله"[12].

ويدعو إلى ضرورة الأخذ من الأمم الأخرى حتى وإن كانت على دين غير ديننا كما فعلت الأمم الأوروبية حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن من تقدم وتطور ولكن بشرط أن

يؤخذ لب الشيء وليس قشوره. وبشكل عام فإن ابن الخوجة حاول في مقدمة هذا الكتاب أن يعالج قضايا كثيرة لها صلة مباشرة بمشاكل الأمة الإسلامية وفي الوقت ذاته سعى إلى طرح الحلول التي اعتقد أنها مناسبة لهذه المشاكل، وكل هذا يمكن لنا إدراجه في إطار ما أصبح يعرف في وقتنا الراهن بإشكالية الأصالة والمعاصرة، وبالتالي يمكن لنا القول أن ابن الخوجة يعد أول جزائري يطرح هذه الإشكالية في الفكر الجزائري المعاصر، وفي هذا الوقت المبكر أي فاتحة القرن العشرين.

أما في خاتمة الكتاب فإنه عاد إلى شرح وتحليل بعض ما ورد في المقدمة والتي قال عنها بأنه كتبها على عجل فيعود إلى التشديد على قضية الوحدة والتعاون بين أفراد المجتمع لأن هذين الشيئين هما أساس الحياة في نظره.

كما أن لابن الخوجة دراسات متعددة ومتنوعة في جريدة المبشر، وكلها كانت تهدف إلى تثقيف الإنسان الجزائري وتوعيته وخاصة تلك الدراسات الجغرافية التي خصصها للحديث عن بعض الدول العربية كتونس وليبيا حيث كان يهدف من ورائها بدون شك إلى إشعار الإنسان الجزائري بأنه مرتبط ارتباطا متينا بهذه الشعوب و الدول بعدة روابط أبرزها رابطة اللغة و الدين.

هذا هو العالم و المفكر محمد بن مصطفى بن الخوجة في بعض من أفكاره وآثاره التي استحق بها لقب أبو النهضة الجزائرية من أحد معاصريه و هو عمر راسم[13].

الهوامش:

1. أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية (الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر) الجزء الثاني ص 141
2. سعد الدين بن إبي شنب: "النهضة العربية بالجزائر في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجري" (مجلة كلية الأداب) (جامعة الجزائر) العدد الأول السنة الأولى 1964، ص 53.
3. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر، ص 138.
4. محمد فريد بك المحامي: من مصر إلى مصر (مطبعة الموسوعات شارع باب الخلق، مصر 1319 هـ)، ص 70
5. محمد رشيد رضا: تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، (طبعة 1931) الجزء الأول، ص 782.
6. جريدة المبشر 21 مارس 1896.
7. محمد بن مصطفى بن الخوجة: الإكتراث في حقوق النساء (مطبعة فونتانة – الجزائر 1895)، ص 64.
8. المرجع مفسه، ص 83-84.
9. المرجع نفسه، ص 93.
10. المرجع نفسه، ص 90.
11. ابن الخوجة: مجموع مشتمل على قوانين مفيدة و تنظيمات سديدة مطبعة فونتانة، الجزائر 1902، ص 5
12. المرجع نفسه، ص 9.
13. أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي (دار الغرب الإسلامي لبنان بيروت 1998)، ج 3، ص 85.

إرهاصات النهضة التعليمية الحديثة بتبسة ووادي سوف في مطلع القرن العشرين

أ.محمدالأمين بلغيث*

مدخل عام: كانت مهمة تعليم وتثقيف الجزائريين، شاقة للغاية، كما كانت التجربة التعليمية الفرنسية، حصاد الغرور، ولن أتحدث عن فرنسا الاستعمارية إلا من خلال وثائق الساسة الذين برمجوا حياة المجتمع العربي المسلم الجديدة وفقًا لمزاجهم الخاص.إذْ في ظل سياسة الإبادة الجماعية للجزائريين[1] وحركة التنفير من الإسلام التي قام بها "لا فيجري" والآباء البيض وتجفيف الينابيع،وقطع صلة الجزائر بعمقها المشرقي عرفت الجزائر في العشرينيات من القرن العشرين حركة إصلاحية مبشرة بميلاد فجر جديد، ونهضة علمية وأدبية، ومرحلة جديدة لإعادة تشكيل العقل الإسلامي في الجزائر وتحريك ضمائر الناس، وتحمل مسؤولية البناء، ومواجهة سياسة المسخ التي كادت أن تأتي على ما بقي من هذا المجتمع المنهك القوى[2]، وكانت مبادئ الإسلام قوام هذه الحركة المباركة لإنقاذ البلاد والعباد من مخالب الجهل ومظاهر الشرك والاستبداد الاستعماري[3].

إن ميراث الهجوم الاستعماري الشامل على الجزائر قد ترك –في العقد الثاني من القرن

*أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية العلوم الإسلامية،جامعة الجزائر